رحلة المطهر

وصف عام
الاغتسال الرمزي
صور من عذاب المطهر
الفردوس الأرضي
لقاء العروس

obeikandl.com

obeikandl.com

وصف عام

يخرج دانتى ودليله عبر سرداب مظلم طويل ممتد من باطن الأرض حيث الجحيم إلى السطح فيشرفان على شواطئ المطهر ؛ الذى يتمثل فى خيال الشاعر الإيطالى على هيئة جبل هرمى سامق ، يقوم وسط محيط لا نهائى تغطى مياهه كل البسيطة . وتحيط بهذا الجبل سبعة أفاريز دائرية تحيله إلى سبعة مدارك يسكن كلا منها فئة خاصة من أهل الخطايا السبع ، وهم بالترتيب من أسفل إلى أعلى :

المتغطرسون والحاسدون والغاضبون والكسالى الذين لا يبالون والبخلاء والجشعون وأصحاب الشهوات الحسية .

وهناك فى مقدمة المطهر تتجمع فى درجتين فئة أخرى ممن ماتوا محرومين من عفو الكنيسة أو أهملوا الدين أو الدنيا أو لقوا بالعنف حتفهم فى انتظار أن يقضى لأرواحهم بسكنى إحدى هذه المنازل .

وفوق الإفريز الأعلى من هذا الجبل يمتد سهل منبسط يقوم عليه الفردوس الأرضى تحيط به طبقة الأثير اللانهائية .

ومن هنا فإن جبل المطهر يمكن أن يعتبر ذا سبع درجات أو تسع أو عشر ، تتصل فيما بينها بطرق شاقة وعرة ، صاعدة ومنحدرة ، أما الأرواح التى تسكنها فإنها ترقى بالتوالى من مقام إلى آخر ، وهى جميعًا بريئة من الكبائر التى لا تغفر ، إذ أن ذنوبها مما تسعه رحمة الله ، سواء كانت قد كفرت عنها فى الأرض أم مازالت تدفع ثمنها وتتطهر منها بالصلاة والدعوات والابتهالات حتى تصعد إلى السماء . وحراس المطهر ليسوا شياطين ولا زبانية مثل حراس الجحيم ، بل هم ملائكة ترعى الأرواح المتطهرة وتقودها إلى الصعود التدريجى .

ويخضع دانتى رمزيًا لعملية التطهير هذه أثناء رحلته ؛ إذ يكتب الحارس على جبينه أول حرف من كلمة ذنب باللاتينية "P" سبع مرات ، وعندما يعبر كل إفريز إلى ما يليه يمحى منه أحد هذه الحروف ، حتى إذا صعد إلى الفردوس الأرضى كان قد برئ بدوره من جميع الذنوب ومحيت منه كل الحروف وانغمس فى ماء نهرين مطهرين تغتسل فيهما روحه وتتأهب لدخول الفردوس[1] .

---

(١) راجع لهذا الملخص شرح الرسم التوضيحى لجبل المطهر كما ورد فى ترجمة المطهر للدكتور حسن عثمان . ص ٤٣٦ .

ويعتبر هذا التحديد التفصيلى الدقيق لوضع المطهر وأفاريزه ووظيفته جديدًا فى إطار أدب الآخرة المسيحى ، إذ أنه حتى أوائل القرن الخامس عشر – أى بعد نشر الكوميديا الإلهية بأكثر من مائة عام – لم يكن وجود المطهر نفسه قد أصبح من العقائد الدينية المسيحية المعترف بها ، كما لم يحدد أى مجمع كنسى وصفًا طوبوغرافيا له حتى ذلك التاريخ . بل كانت الكنيسة تنحو إلى عدم اعتماد أى وصف مكانى يحدد مواقع العالم الآخر خاصة المطهر ، وكل ما كانت تتقبله بإجمال هو وجود المطهر دون تحديد لمكانه أو شكله أو مراتبه أو درجات التطهير فيه . كما لم يقدم التراث الأدبى الغربى السابق على دانتى مادة كافية له تشرح تفاصيله الثرية ، مما حدا بدارسيه إلى أن يؤكدوا أن تصورات دانتى للمطهر قد ابتدعت أشكالا ومواقع تخرج على التصورات المسيحية الشائعة فى عصره[١] .

ولم يستطع الدارسون تفسير هذه الظواهر إلا عندما اتجهوا للتراث الإسلامى يمحصون العناصر التى استقاها دانتى منه ، خاصة تلك التى تتصل بعذاب القبر ونعيمه وهل يجرى على الروح والجسد أم على الروح فقط ، وهل يبدأ بعد الموت مباشرة أم عند البعث مما تحفل به كتب الرقائق الإسلامية ويقدم مادة تصويرية غنية كفيلة بشرح كثير من تصورات دانتى .

ولا يروعنا أن التراث الإسلامى المتصل بأدب الدار الآخرة لم يرد فيه ذكر المطهر بهذا الإسم ؛ إذ أنه قد أطلق عليه أسماء أخرى معينة ، وحدد موقعه غالبًا كمكان مجاور للجحيم ولكنه منفصل عنه ، فإذا كان الجحيم يقع فى باطن الأرض فإن هذا « المطهر » يقوم على سطحها ، كما أن الأرواح – وهذا هو المهم فى فكرة المطهر – تمضى فيه فترة محددة تتطهر خلالها حتى تقترب من درجات الفردوس مارة بالفردوس الأرضى .

ونحسبنا أن نورد بعض روايات التراث الإسلامى التى تتضح منها هذه الفكرة ، ومنها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق نارين : إحداهما تسمى النار الجوانية والأخرى تسمى النار البرانية .

أما الأولى فلا يخرج منها أحد ، لكن البرانية هى المكان الذى يلقى فيه المؤمنون جزاءهم على ما فرط منهم فى جنب الله ما شاء من الوقت ، ثم يأذن الله لملائكته ورسله وأوليائه أن يشفعوا لهم فيخرجون من النار وقد صاروا سودا مثل الفحم ، فيأتون إلى

---

(١) انظر : Landino, Prologo del Purgaturio. P. 194. Segun A. Palacios. op. cit. P. 177.

شاطئ نهر فى الجنة يسمى نهر الحياة ، فإذ مستهم مياهه عادت أجسامهم إلى طبيعتها وقيل لهم ادخلوا النهر فينزلون إليه ويشربون منه ثم يخرجون معافين ويقال لهم « ادخلوا الجنة » وهناك يسمون بأهل النار ، فيضرعون إلى الله أن يمحو عنهم هذه الصفة فيأمر الله أن تمحى من جباههم ويكتب مكانها عتقاء الله » .

وفى خبر آخر عن عبد الله بن الحارث « أصحاب الأعراف ينتهى بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة فيغتسلون منه اغتسالة فيبدو فى نحورهم شامة ، ثم يعودون فيغتسلون ، فكلما اغتسلوا ازدادت بياضًا ، فيقال لهم تمنوا ، فيتمنون ما شاء الله تعالى ، فيقال لهم : لكم ما تمنيتم وسبعون ضعفًا ، فيعرفون بمساكين أهل الجنة ، فإذا دخلوا الجنة وفى نحورهم تلك الشامة البيضاء عرفوا بها من بين الناس[١] .

وقد رأينا أن دانتى فى المشهد الأخير من المطهر قد محيت من على جبينه الحروف الرامزة إلى الذنب وانغمس فى مياه نهرى « ليتى » و « إينوى حتى أحس أنه قد ولد من جديد ، وصار طاهرًا متأهبًا للصعود إلى السماء . وسنرى أن هذا المشهد التطهيرى كثير الدوران فى التراث الإسلامى الخاص بأدب المعراج من ناحية والمتصل بأخبار الدار الآخرة من ناحية أخرى ، إلا أن ما يعنينا الآن إنما هو التحديد الدقيق لموقع المطهر بعد النار وقبل الجنة ، وقد روى البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة » .. وروى ابن عساكر عن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة ألف سنة : خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف مستوى »[٢] ومعنى هذا أن الصراط لم يعد مجرد ممر دقيق مثل الشعرة وإنما أصبح هضبة عالية ، أو كما ورد فى بعض الأخبار الأخرى « إن من وراء الصراط صحراء فيها أشجار طيبة » وأهم من ذلك أن الوظيفة التى يقوم بها هذا المكان تحدد فى التراث الإسلامى على أنها التطهير والتنقية والتهذيب والإعداد للصعود لمراتب الجنة ، وهى نفس الوظيفة التى رأيناها فى مطهر دانتى .

ويحل الرواة المسلمون إشكال هذا الصراط الخاص على أساس أن فى الآخرة صراطين ، أحدهما مجاز لأهل الحشر كلهم إلا من دخل الجنة بغير حساب أو يلتقطه عنق من النار

---

(١) انظر : مختصر تذكرة الإمام القرطبى للشعرانى ، طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٦٨ صفحة ٩٢ وكنز العمال فى ثبوت سنن الأقوال والأفعال للهندى طبع القاهرة عام ١٣١٢ هـ .

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدى الجزء العاشر ص ٤٨١ .

فإذا خلص من خلص من الصراط الأكبر حبسوا على صراط آخر لهم ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله تعالى لأنهم قد عبروا الصراط الأول على متن جهنم .

وحتى هذا الصراط الأول المضروب على ظهرى جهنم يحتوى على كثير من العناصر التى دخلت فى تصور دانتى ، فبالرغم من أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف إلا أن له جسورًا تغيب فى جهنم مقدار أربعين ألف عام ، ولهيب جهنم بجانبها يلتهب ، وعليها حسك وكلاليب وخطا طيف ، وهى سبعة جسور ، يحشر العباد كلهم عليها ، وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام : ألف عام صعود وألف عام استواء وألف عام هبوط . ويتفنن ابن عربى فى توصيف هذه الجسور وتجسيم الحساب عليها قائلا : وذلك قول الله عز وجل ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يعنى على تلك الجسور ، وملائكته يرصدون الخلق عليها ، لتسأل العبد عن الإيمان بالله ، فإن جاء به مؤمنًا لا شك فيه ولا زيغ جاز إلى الجسر الثانى فيسأل فى الجسر الثانى عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الرابع فيسأل عن الصيام فإن جاء به تاما جاز إلى الجسر الخامس فيسأل عن حجة الإسلام فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر السادس فيسأل عن الطهر فإن جاء به تامًا جاز إلى الجسر السابع فيسأل عن المظالم ، فإن كان لم يظلم أحدًا جاز إلى الجنة وإن كان قصر فى واحدة منهن حبس على كل جسر منها ألف سنة حتى يقضى الله فيه بما يشاء »[1] .

فجسور الصراط هنا مثل أفاريز المطهر سبعة ، ويسكنها فئات من تاركى الفرائض على اختلاف فى التصور بين دانتى وابن عربى ، لكنهم ليسوا من أهل الكبائر ، وهى أيضًا على شكل سلسلة من العقبات التى يستغرق صعود كل منها ألف عام ، وهى فى نهاية الأمر ارتقاء وتنقية وتطهر واستعداد للدخول فى رحاب الفردوس .

وقد ظل الباحثون فى شك من إمكانية وصول مثل هذه الأوصاف الإسلامية إلى دانتى حتى اكتشفت مخطوطة المعراج ، وإذا بها حافلة بالعناصر الوصفية الثرية لهذا الصراط فى ثلاثة فصول مطولة هى ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ وشذرات من فصول أخرى تقدم كلها مادة يمتزج فيها الروح الصوفى بالخيال الشعبى ، وتجسم بطريقة حسية الأشكال التصويرية للعالم الآخر . فالصراط فيها يتكون أيضًا من سبعة جسور معلقة فوق الجحيم ، وكلها أدق من الشعرة وأحد من السيف وعلى جانبيها الكلاليب

---

(١) انظر الفتوحات المكية لابن عربى – السفر الرابع من الطبعة التى حققها الدكتور عثمان يحى القاهرة ١٩٧٥ . ص ٤٤٦/٤٤٧ .

والخطاطيف ، وطولها آلاف السنين ، وكل منها يتلو ما قبله ويفوقه فى الطول والدقة ، ويجوز عليها المذنبون إلى الجنة بعد أن يتطهروا من ذنوبهم على كل معبر ، ويسألون عند كل جسر عن عمل محدد من أعمال البر وأداء الفرائض ، ابتداء من الإيمان وإقامة الصلاة والصيام والحج وحفظ القرآن إلى التطهر وبر الوالدين .

على أن بجوار هذا الصراط – طبقًا لرواية المخطوطة المترجمة – عدة مروج ورياض يمرح فيها المتطهرون بعد ابتلائهم ، مما يجعل صورتها شديدة القرب من تصور دانتى للمطهر بجباله وأفاريزه مما لا نظير له فى الأدب المسيحى السابق عليه .

obeikandl.com

الاغتسال الرمزى

من المعالم المميزة لمطهر دانتى أنه تطهر ثلاث مرات مختلفة قبل أن يرقى إلى السماوات : المرة الأولى عندما خرج من الجحيم فأخذ فرجيليو طبقًا لنصيحة كاتون يغسل وجه دانتى بيديه كى يمسح عنه الأقذار التى علقت به من زيارة الجحيم ، ونتيجة لهذا التطهر الأول عاد لونه الطبيعى إلى خديه المخضلتين بالدموع .

أما المرتان الثانية والثالثة فقد حدثتا قبيل خروجه من المطهر عندما غمست كل من ما تيلدى وستاشيو دانتى فى مياه الجدول ونهر إينوى لمسح الذنوب من ذاكرته . وتجديد روحه وطاقته حتى يقول :

وعدت من أعظم الأمواج قدسية مولودًا جديدًا .
كالأشجار الجديدة التى تتجدد ببزوغ أوراقها الوليدة .
وصرت طاهرًا ومؤهلا للصعود إلى النجوم[١] .

ولسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى أن عملية التطهير نفسها من معالم المعراج الإسلامية المميزة كذلك ، إذ لا يخلو منها أى حديث من أحاديث المعراج ، كما أنها أصبحت من العناصر الشائعة فى أدب الدار الآخرة نتيجة للآية الكريمة ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل﴾ ، وعلينا الآن أن نتتبع الصور التى تقرب من دانتى ، منها ما ورد فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى من قوله مرفوعًا ..« ولكن ناس أصابتهم النار بخطاياهم فأماتهم الله حتى إذا كانوا فحما أذن لهم فى الشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فقيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل »[٢] .

وفى حديث على « حتى إذا انتهوا إلى باب من أبواب الجنة وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما فى بطونهم من أذى أو قذى أو بأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم بنضرة النعيم فلن تتغير أبشارهم بعدها أبدًا ولن تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان »[٣] إلا أن أقرب الروايات لما رأيناه عند دانتى ما ورد فى تراث الإسراء

---

(١) انظر : المطهر ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٣ أبيات ١٤٢ - ١٤٥ وكتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٦٥ .

(٢) انظر مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٩٨ .

(٣) انظر الترغيب والترهيب الجزء الرابع ص ٩٢٤ بروايات مختلفة .

والمعراج فى وصف جنة إبراهيم الخليل إذ يتم التطهير على ثلاث مراحل أيضًا تنغمس فيها أرواح المذنبين وأجسامهم حتى تصفو على درجات ماديا ومعنويا على النحو التالى :

« وعنده – أى إبراهيم – قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم فى ألوانهم شىء ، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه فخرجوا ، وقد خلص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم فجاءوا وجلسوا إلى أصحابهم فقال يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء وما هذه الأنهار التى دخلوا فاغتسلوا فيها ؟ » ففسر له جبريل حالات القوم ودلالات الأنهار الرمزية من أنها رحمة الله ونعمته وشراب طهور[1] .

فصورة البزوغ الجديد كالشجرة ذات الأوراق الوليدة وردت فى الأثر الإسلامى الأول « ينبتون نبات الحبة فى حميل السيل » وقد أعجبت بعض حضور الرواية من التابعين ، ولفتت انتباهه خبرة الرسول بظواهر الطبيعة إذ جاء بعدها : « فقال رجل من القوم . كأن رسول الله قد كان يرعى بالبادية » ، وفى الحديث الثانى شرح لعملية التطهير المادية والمعنوية وفى الثالث تفصيل لمراحل التطهير ودلالته .

ونأتى إلى قصة المعراج المترجمة لنجد نفس هاتين العينين النضاحتين على باب الجنة – فى الفصل الثامن والثلاثين – تنبعان عند ساق شجرة عظيمة ويشرب من أحدهما الداخل فيذهب ما فى بطنه من أذى أو قذى ، ثم يستحم فى العين الأخرى فتصفو روحه ويضىء وجهه وتحل عليه نعمة الله .

وبهذا العنصر الأخير نجد الدليل الحاسم على تمثل دانتى للمأثورات الإسلامية بالصورة التى جاءت عليها فى قصة المعراج ، إذ كان من الممكن أن تتعدد وتتكاثر عمليات التطهير الرمزية ثم تخلو منها القصة المترجمة فيصعب إلمام دانتى بها ، كما كان من المتوقع أن تأتى هذه العملية فى بداية المعراج – مثل بقية الروايات والأحاديث – وعندئذ كان علينا أن نتوقع أيضًا أن يكون مكانها عند دانتى فى بداية رحلته ، أما وقد وضعتها القصة المترجمة عند مدخل الفردوس أو نهاية الجحيم فإن دانتى يدرك مغزاها بهذا الشكل ويحتفظ به فى كثير من صوره وأشكاله ودلالته الرمزية .

---

(١) انظر لهذا الحديث تفسير الطبرى – الجزء الخامس عشر ص ٩ . وقصة الإسراء والمعراج للغيطى ص٩٩ .

صور من عذاب المطهر

كان من الصعب على دانتى نفسه أن يتخيل جديدًا فى أصناف العذاب بعد ما ذكره فى الجحيم ليملأ به أفاريز المطهر ، ومع ذلك فإن كثيرًا من الصور التى أوردها لا تخلو من مشابه محددة لمشاهد نظيرة لها فى التراث الإسلامى على الوجه التالى :

– يتمثل عقاب الذين تأخروا فى توبتهم من الآثام حتى إذا حضرهم الموت فى الانتظار والمكث زمنًا طويلا حتى يأذن الله لهم فى الصعود إلى جبل المطهر ، وهم لذلك يرقدون عند سفح الجبل ملتصقين بالصخور الوعرة ومنتظرين من أقربائهم الأحياء أن يترحموا عليهم ويغمروهم بصلاتهم ودعواتهم حتى تقصر مدة انتظارهم ويتعرف دانتى فيهم على « مانفريد » الذى يتقدم إليه ويطلب منه أن يذكره بالصدق لدى ابنته عساها تصلى لروحه وتدعو له بقبول التوبة المتأخرة[١] .

كما يرى دانتى رجلا جالسًا محتضنًا ركبتيه خافضًا بينهما رأسه فيتعرف عليه فإذا هو « بلاكوا » الفلورنسى صانع الآلات الموسيقية الذى يقول له : لا جدوى من محاولة الصعود قبل الأوان إلا أن الصلوات الطيبة فى الأرض تقصر من مدة الانتظار .

والتراث الإسلامى ملىء بمثل هذه المشاهد فى موضعين :

أحدهما عند الحديث عن عذاب القبر – وهو أحد مقابلات المطهر فى التصور الإسلامى – إذ وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها . « الميت فى قبره كالغريق المتعوب ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو من صديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها »[٢] ، كما وردت رواية عن أبى دلف العجلى القائد الحربى فى عهد الخليفة المأمون الذى يأتى فى المنام لابنه دلف ويقص عليه ما يراه فى عذاب القبر حيث يجلس « واضعًا رأسه بين ركبتيه » فى انتظار رحمة الله ويطلب منه أن يخبر بقية أهله بحاجته إلى صلاتهم ودعائهم[٣] .

وثانيهما عند الحديث عن هول يوم القيامة وعذاب الانتظار فى المحشر حتى يقضى بين الناس ، وكيف أنه يتفاوت طولا وقصرًا تبعًا لأعمال العبد من ناحية ولسرعة غوثه بشفاعة الرسول والأولياء من ناحية أخرى .

---

(١) انظر : المطهر ترجمة الدكتور حسن عثمان : النشيد الثالث : الأبيات ١١٢ – ١٢٤ ص ٨١/٨٢ .

(٢) انظر : مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى . ص ٣٧ .

(٣) انظر : شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطى ، مطبعة الحلبى بالقاهرة عام ١٩٥١ .

– ويحكى دانتى فى الأنشودة العاشرة أنه رأى المتكبرين فى المطهر يسيرون وقد ناءت ظهورهم بالأحجار الثقيلة وقطع الصخر الضخمة فانحنوا تحت وطأتها جزاء غطرستهم مما يذكرنا بكثير من الأحاديث النبوية عمن يجيئون يوم القيامة وقد حملوا على ظهورهم ما فرحوا به من متاع الحياة الدنيا وعمن اغتصب من غيره شبر أرض فيحمله يوم القيامة حتى يهوى به إلى قاع الأرض وعن البخلاء الذين يأتون يوم القيامة وقد حملوا كنوزهم على ظهورهم .

– وعلى الإفريز الثانى من المطهر يرى دانتى الحاسدين فى هيئة عميان خيطت أجفانهم بسلك من حديد جزاء لهم على عدم صيانتهم لما يرونه وحسدهم له . والعمى كثير الورود فى التراث الإسلامى بمعنييه المادى والمعنوى ، ففى الآية الكريمة ﴿ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾[١] ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[٢] . على أن فى اعتبار العمى عند دانتى جزاء للحسد قدرًا كبيرًا من التوافق مع أسلوب الجزاء فى الإسلام الذى يوقع العقوبة على نفس الجارحة التى ارتكب بها الذنب كما رأينا فى الحديث عن الجحيم .

– عندما ينتهى الشاعر الإيطالى من زيارة الحلقة الرابعة من المطهر يرى فيما يرى النائم « امرأة عاطلة من مفاتن النساء ، متلعثمة اللسان ، حولاء العينين ، ملتوية القدمين ، مبتورة اليدين ، شاحبة الوجه ، لكنها مع ذلك كما تبعث الشمس الدفء فى الأطراف الباردة التى يثقل عليها الليل ..

انتصبت قامتها برهة واكتسى وجهها الشاحب
باللون الذى يتطلبه المحبة .
وشرعت تغنى حتى كان من العسير على أن أحول انتباهى عنها[٣]

بيد أن فرجيل يدعو دانتى لمواصلة السير بعد أن عراها من ملابسها وكشف له عما فى بطنها من كريه الروائح ، فإذا لاحظ عمق تأثير الرؤية السابقة فى نفس دانتى شرح له دلالتها قائلا :

---

(١) سورة الإسراء ٧٢ .
(٢) سورة طه : ١٢٤ – ١٢٥ – ١٢٦ .
(٣) راجع المطهر – ترجمة الدكتور حسن عثمان – النشيد ١٩ أبيات ٥٨ –٦٠ وما يليها .

لقد شهدت تلك الساحرة القديمة التى تحمل وحدها
المتطهرين على البكاء فوقنا الآن
ورأيت كيف يتخلص المرء منها .

ومشهورة هى قصة المرأة الداعية فى أحاديث الإسراء والمعراج التى تتكفل بشرح دلالتها الرمزية ، لكن بعض الروايات – مثلما جاء فى الطبرى – تورد بعض الأوصاف القريبة مما نراه عند دانتى ، فهى امرأة عجوز قبيحة خالية من كل مظاهر الإغراء الطبيعية ، وإن كانت تخفى معالم قبحها بما تصطنعه من زينة ، وتحاول اجتذاب الرسول إليها بمعسول الكلام وفاضح الحركات ، فيسأل الرسول جبريل عمن تكون هذه المرأة ، لكن الملاك الهادى يتفادى الإجابة عن سؤال الرسول حينئذ ويحثه على مواصلة السير ، ثم يفسر له بعد ذلك ما رآه . فالمرأة العجوز هى الدنيا وقد تحلت بغالى الثياب كى تستر قبحها وتفتنه ، وأنه لو كان قد توقف عن سيره وعن طريقه من أجلها لكانت أمة الأسلام قد فضلت السعادة الدنيوية العاجلة على الآخرة[١] . ومن هنا يتضح لنا تطابق الرؤيتين ، بالرغم من أن دانتى قد أدخل فى سياقه بمهارة إشارة كلاسيكية إلى قصة عوليس ونداء عرائس البحر له ، وقد انتهى شراحه إلى تفسير رؤياه بأن المرأة رمز لسعادة العالم الزائفة ومتعه الزائلة ، وهو نفس التفسير الذى نصت عليه الروايات الإسلامية .

– وعندما يصعد دانتى إلى إفريز الغاضبين فى المطهر يرى المكان وقد غشيه دخان فى مثل سواد الليل حتى لا يستطيع رؤية من يكلمه :

« ولم يكن لنا هناك من مأوى نهرب إليه
وقد حرمنا من الرؤية ومن الهواء الخالص ..
وإذا منعنا الدخان من الرؤية فسيحفظ السمع صلتنا بدلا منها »[٢]

وعقاب الدخان هذا من مشاهد القيامة فى القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾[٣] وتأتى الأحاديث لتوضيح وتفصيل هذه الصورة بمثل : « تأتى السماء بدخان كثيف يغشى الناس كالظلمة فى أبصارهم ، فيظلم الهواء والجو ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه أربعين يومًا وليلة ،

(١) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى – الجزء الخامس عشر ص ٦ .
(٢) انظر المطهر النشيد ١٦ أبيات ١ – ٧ .
(٣) سورة الدخان – الأيات ١٠ – ١٢ .

فيملأ الدخان ما بين المشرق والمغرب .. ويأخذ بأنفاس الكفار .. حتى ليحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان[١] .

– ويتمثل عذاب البخل عند دانتى فى مطهره فى اطراح البخلاء واستلقائهم على الأرض « يذرفون الدمع ويقولون فى تنهد عميق : لصقت بالتراب نفسى ... »

« وقد قيدت أقدامنا وأيدينا وشلت من حركاتنا

وسنظل ممددين دون حراك طالما يروق ذلك للسيد العادل »[٢] .

ونجد نفس هذه الصورة فى التراث الإسلامى فى عذاب السكارى وشاربى الخمر بصفة خاصة إذ « يقوم أحدهم مغلولة يداه مقيدة رجلاه ثم يسحب فيها بالسلاسل على وجهه[٣] » وكذلك فى وصف عبور المذنبين للصراط إذ يكون منهم من يحبو على وجهه ومنهم من يزحف على بطنه كما ورد فى نص مخطوطة المعراج المترجمة فى الفصل الثامن والسبعين . والمجموعة السابعة – تعبر الصراط – مثل طفل صغير يحبو ويبدأ فى المشى ، بعضهم يجر نفسه على صدره وآخرون يتشبثون بأيديهم بالجسر لكنهم يسحبونها عندما تلسع النار أصابعهم » .

– وفى عقاب خطيئة الجشع والنهم يرى دانتى المتطهرين وهم يتطلعون إلى الأشجار المثمرة كالأطفال الذين يطلبون الفاكهة دون جدوى ؛ فالحكمة الإلهية تعاقب الشرهين وتطهرهم بالجوع والعطش والحرمان من الثمار التى يرونها ، وهذا النوع من العقاب شائع فى التراث الإسلامى بكثرة ابتداء من الآية القرآنية ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع﴾[٤] إلى الأوصاف الواردة فى كتب التفسير عن شجرة الزقوم ، ولكن أقرب الصور الإسلامية إلى ما رأيناه عند دانتى ما ورد من أن « آخر من يدخل الجنة رجل يمشى على الصراط مرة ويكبو مرة وتسعفه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها ... فترفع له شجرة فيقول أى رب ادننى من هذه الشجرة لأستظل بظلها وآكل من ثمرها فيقول الله تعالى : يا ابن آدم فلعلك إن أعطيتكها تسأل غيرها فيقول لا يارب » لكنه ينكث بعهده ويظل هكذا أمام ثلاث شجرات بنفس الطريقة[٥] . ومع

---

(١) انظر تفسير الخازن لسورة الدخان .

(٢) انظر المطهر – النشيد ١٩ أبيات ٧٣/ ١٢٤ – ١٢٦ .

(٣) انظر قرة العيون ومفرح القلب المخزون لأبى الليث السمر قندى . طبع صبيح بالقاهرة ص ٨ .

(٤) سورة الغاشية ، الآيات ٥ / ٦ .

(٥) انظر مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ١٢٩ .

أنه ينتهى إلى الجنة وثمارها برحمة الله مما يجعله مختلفاً عن مذنبى دانتى الذين يظلون محرومين إلا أن الملامح العامة واحدة وإن اختلفت التفصيلات . ومهما كانت الفروق بين العناصر الإسلامية والدانتية فإن كل تلك المشابه على تناثرها تدل بتكاثرها وتكوينها لمجموعة متكاملة من الصور الجزئية على فعالية هذا التراث كمصدر هام لا ينكر للكوميديا الإلهية ، خاصة فى تلك المواضع التى لم يعثر الباحثون فيها على نظائر لصوره من التراث المسيحى .

obeikandl.com

الفردوس الأرضى

لعل آخر مشهد كبير عند دانتى فى المطهر هو هذا البستان الشبيه بغابة الصنوبر الذى يقع على قمة جبل شاهق أرضه نضرة ، والمياه من حوله صافية ، حيث رأى فى وسطه سيدة جميلة تغنى وتقطف الأزهار التى زينت كل طريقها . فسمع دانتى شدوها العذب واستوضح منها ما غمض عليه من سر هذا المكان ، فقالت له إن الله منح هذا المكان لإقامة الإنسان ، ولكنه بالخطيئة حول سعادته إلى بكاء وعذاب ، أى أنهم فى جنة آدم التى أخرج منها . وقالت له « ماتيلدا » – إن جبل المطهر يزداد علوًا صوب السماء حتى يصبح غير خاضع لمؤثرات الأبخرة فى الدنيا ، ولكن دوران السماء يحدث مثل هذا الهواء فى أعلى المطهر ؛ وبذلك نوزع فى أرجائه بذور النبات فتمتلئ بفاكهة لا نظير لها وتجرى فيه الأنهار التى تجعله ربيعًا دائم النضرة[1] .

على أن قمة هذه المرحلة من المطهر لقاء دانتى مع بياتريش التى تبدو له كأنها عروس السماء تعاتبه وتهدهد عواطفه وتتولى زمامه لتقوده إلى عوالم السماوات الطاهرة . أما التراث الإسلامى ففيه أيضًا بستان وارف الظلال يقع عند نهاية الصراط وقرب باب الجنة ، ويتم عنده الاغتسال الرمزى أو التطهر كما رأينا ، وتحف به مجموعة أنهار رائعة ، وقد يسمى بستان إبراهيم أو جنة آدم ، وهى الجنة الأرضية التى تقابل فردوس دانتى الأرضى عند نهاية المطهر .

فلنتعرف عن كثب على جنة آدم هذه طبقًا لبعض الروايات الإسلامية لنرى مدى قربها من تصورات دانتى. « قال منذر بن سعيد فى تفسيره وأما قوله تعالى لآدم: ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ فقالت طائفة: أسكن الله آدم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة ، و قال آخرون هى جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد .. وقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الأصبهانى هذه الجنة فى الأرض ، وكانت بستانا جعله الله له امتحانًا ولم تكن جنة المأوى. والقول بأنها جنة فى الأرض ليست جنة الخلد قول أبى حنيفة وأصحابه . وذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف بعد ذكره خلق الله لآدم وزوجه قال : ثم تركها وقال أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وتسلطوا على ألوان البحور وطير السماء والأنعام وعشب الأرض وشجرها وثمرها .. ونصب الفردوس فانقسم على أربعة أنهار : سيحون وجيحون ودجلة والفرات .. ثم أخرجه من مشرق جنة عدن إلى

(١) انظر ملخص الأناشيد ٢٨ / ٢٩ الدكتور حسن عثمان فى المطهر . ص ٣٦٢ وما يليها .

الأرض التى منها أخذ ، وكان مهبطه حين أهبط من جنة عدن فى شرق أرض الهند .. يعنى أخرجه من الفردوس الذى نصب له فى عدن فى شرق أرض الهند »[١] .

وقد تسمى هذه الجنة فى بعض الآثار الإسلامية الأخرى – خاصة الصوفية – جنة البرزخ ، يقول الشعرانى « ليست الجنة التى أخرج منها آدم هى الجنة الكبرى المدخرة فى علم الله تعالى ، فإن تلك لا يصح فيها معصية لآدم ولا إباية لإبليس لكونها حضرة الله تعالى الخاصة .. وإنما هى جنة البرزخ التى هى فوق جبل الياقوت .. وجنة البرزخ هى التى ترى فى الدار الدنيا .. وفى الآخرة تكون هى المرج عند نهاية الصراط خارج سور الجنة »[٢] .

ويبدو أن هذه الجنة البرزخية هى التى تقابل الجنة المادية فى التراث الصوفى ، إذ أن فيه جنتان : إحداهما مادية لعامة الناس والثانية روحية للمصطفين من عباد الله ، وعن هذا يحدثنا ابن عربى بقوله :

« اعلم – أيدنا الله وإياك – أن الجنة جنتان : جنة محسوسة وجنة معنوية ، والعقل يعقلهما معًا .. والنفس الناطقة المخاطبة المكلفة لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف من طريق نظرها وفكرها وما وصلت إليه من ذلك بالأدلة العقلية ، ولها أيضًا نعيم بما تحمله من اللذات والشهوات مما تناله بالنفس الحيوانية من طريق قواها الحسية من أكل وشرب ونكاح ولباس وروائح ونغمات طيبة تتعلق بها الأسماع ، وجمال حسى فى صورة حسنة معشوقة يعطيها البصر فى نساء كاعبات ووجوه حسان وألوان متنوعة وأشجار وأنهار »[٣] .

ويشرح الشعرانى هذه الفكرة بالتفصيل ؛ مصرحًا بتفاوت الجنان طبقًا لتفاوت مدارك الناس وعقولهم ودرجاتهم وملمحًا إلى بعض المقارنات الدينية الهامة : « فإن قلت قد بلغنا أن لنا جنة برزخية أخرى فما هى ؟ فالجواب : قد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجنة ولم يصرح بها وذلك نحو قوله : ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾

---

(١) انظر : حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . لابن القيم الجوزية . طبع المدنى بالقاهرة .ص ٢٢ / ٢٤ .

(٢) انظر : اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر للأمام عبد الوهاب الشعرانى وعلى هامش كتاب الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر – طبع دار المعرفة بيروت جـ ٢ ص ١٥٥ .

(٣) انظر : الفتوحات المكية لابن عربى ، طبعة عثمان يحيى المحققة . السفر الخامس . ص ٦٠ ، وهى الطبعة التى نستخدمها حتى آخر ما صدر منها ثم نكمل من طبعة بيروت المصورة .

قال الشيخ محيى الدين : وإنما كانت هذه الجنة برزخيةً لأنها ما هى محسوسة كقوله تعالى : ﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فوصف الله تعالى الجنان على حسب تفاوت عقول الناس . قال : وقد صرح المسيح عليه السلام بما أومأنا إليه من النعيم الروحانى ، فقال للحواريين حين أوصاهم بوصية وفرغ منها : فإذا فعلتم ما أمرتكم به كنتم غدًا معى فى ملكوت السماء عند ربى وربكم وترون الملائكة حول عرشه تعالى يسبحون بحمده ويقدسونه وأنتم هناك ملتذون بجميع اللذات من غير أكل ولا شرب . قال الشيخ : إنما صرح المسيح بذلك ولم يرمزه كما رمز كتابنا لأن خطابه كان مع قوم قد هذبتهم التوراة ومطالعة كتب الأنبياء وكانوا متمتعين متهيئين لتصورها وقبولها بخلاف نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه اتفق مبعثه فى قوم أميين أهل برارى وجبال غير مرتاضين بعلوم ولا مقرين ببعث ولا نشور ، بل ولا عارفين بنعيم ملوك الدنيا فضلا عن معرفتهم بنعيم ملوك الآخرة ، فلذلك جاء أكثر أوصاف الجنان فى كتابهم جثمانية تقريبًا لفهم القوم وترغيبًا لنفوسهم[١] .

ولا يروعنا هذا التحليل الإسلامى لطبيعة النعيم فى الجنة ، فمذهب الفلاسفة معروف فى ذلك باعتبار الصور الحسية مجازات ورموز ، على أننا نجد مفكرًا مثل الغزالى – فى أكثر كتبه انتشارًا وهو الإحياء – يذكر التفصيلات المجازية لصور العذاب والثواب فى الآخرة ويرى أن نعيم الرؤيا هو الجنة الحقيقية لأن ما عداه مما تشترك فيه البهائم ، ثم يوضح فى كتاب الأربعين أنه بذلك يخالف الجمهور ، إذ أنه « مسافر والجمهور مقيم »[٢] .

والذى يعنينا الآن هو أن نشير إلى أن هذا التراث الإسلامى فى تفصيل أنواع الجنان من مادية وروحية وطبيعة النعيم فيما كان معروفًا فى العصور الوسطى قبل دانتى لدى جماعة من أهم المفكرين المسيحيين – خاصة فى إسبانيا – منهم « رايموندو لوليو » و« رايموندو مارتين » وكلاهما يصرح فى كتاباته باطلاعه على آراء الفلاسفة المسلمين فى نعيم الجنة الروحى ، ويشير « مارتين » إلى معرفته كتاب مقاصد الفلاسفة للغزالى كما يشير لوليو إلى ابن عربى وابن رشد ، وهذا يعنى أنه فى نفس القرن الثالث عشر الذى كان يكتب فيه دانتى ملحمته كان هناك مفكرون مسيحيون يعرفون الفردوس الإسلامى بمجاليه الروحية التى لا تتعارض مع التراث المسيحى وإن كانت تفتح له آفاقًا

---

(١) انظر المصدر السابق للشعرانى ، الجزء الثانى ص ١٧٥ .

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للمرتضى الزبيدى ، الجزء العاشر طبعة دار إحياء التراث العربى ببيروت ص ٤٠٨–٤١٢ .

لم يعرفها ؛ إذ تصور عالمًا من النور والألوان والاستغراق الروحى إلى حد النشوة فى الحب الإلهى . وإذا كان دانتى يعلن فى المطهر :

« قد حبانى الله بنعمته حتى صارت مشيئته أن أرى رحابه
على نحو لا يدانيه العرف المألوف أبدا »[١]

فإن معنى هذا أنه – مثل هؤلاء المفكرين المسيحيين – قد اطلع على فلذات من التراث الفلسفى والصوفى والثقافى الإسلامى الذى استمد منه نماذج للدار الآخرة وصورًا للعذاب والنعيم فيما تبعد عن المألوف فى الثقافة الغربية الأدبية والدينية المعاصرة له .

وقد استطاع الباحثون فى أدب دانتى أن يحللوا أساطير العصور الوسطى المتعلقة بالفردوس الأرضى – على ارتباط بعضها بالثقافة الإسلامية – ويبينوا كيف أنها تعد سوابق لدانتى فى تحديده لموقع هذا الفردوس فى نصف الكرة الجنوبى من الأرض على ذروة جبل سامق .

ولكنهم أكدوا أن أحدًا لم يسبق دانتى فى وضعه للفردوس على قمة المطهر ، فخياله الخلاق عندهم هو الذى هداه إلى تصور الفردوس كهدف أو نهاية للطريق الوعر الذى تقطعه الأرواح كى تتطهر من آثامها ، أى تصوره مجاورًا للمطهر فى قمة جبل الكفارة على مشارف السماء كمرحلة أخيرة ينبغى للأرواح أن تقف عندها لتنفض عنها أدرانها وتصفو من خلال طهر مزدوج تعبر بعده عتبات الخلود .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن التراث الإسلامى حافل بهذه التصورات عند تفصيله لموضع الصراط من ناحية وذكره لجنة آدم من ناحية أخرى ، ويهمنا الآن أن نستكمل هذه الصورة بإضافة عنصر جديد هام يتمثل فى رسائل إخوان الصفاء الشهيرة فى المشرق والمغرب ، إذ تعد موسوعة المعارف الثقافية لهذه الفترة ، وقد جاء فيها عند الحديث عن أصل الخلق ما يلى :

« فأمر الله أولئك الملائكة أن يصعدوا بآدم عليه السلام فأدخلوه الجنة ، وهى بستان من المشرق على رأس جبل الياقوت الذى لا يقدر أحد من البشر أن يصعد هناك ، وهى طيبة التربة ، معتدلة الهواء شتاء وصيفًا ، ليلا ونهارًا ، كثيرة الأنهار ، مخضرة الأشجار ، مفتنة الثمار والفواكه والرياض والرياحين والأزهار ، كثيرة الحيوانات غير المؤذية والطيور الطيبة الأصوات ، اللذيذة الألحان والنغمات »[٢]

---

(١) المطهر : ترجمة د . حسن عثمان . نشيد ١٦ – أبيات ٤٠ – ٤٣ .

(٢) انظر : رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء . طبع دار صادر ببيروت عام ١٩٥٧ ، الجزء الثانى ٢٢٩/٢٣٠ .

وبعد أن يقص حكاية الخطيئة والأكل من الشجرة المحرمة وكيف بدت لهما عوراتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، يحكى العقاب الذى وقع عليهما بأنه :

أمر الله تعالى الملائكة أن اخرجوهما من هناك ، فرموهما إلى أسفل الجبل ، فوقعا فى برية فقراء لا نبت فيها ولا ثمر » .

فهذه الأرض إذن نظير ما نراه عند دانتى تقع على قمة جبل هو أعلى جبال الأرض وقد اختلفوا فى تحديد مكان هذا الجبل ، فتارة يضعونه فى سوريا وأخرى فى إيران وثالثة فى الهند وهذا أشهر الأقوال ، وقد أطلق عليه إخوان الصفاء كما رأينا اسم « جبل الياقوت » . وحدده علماء الجغرافيا العرب بأنه .

« جبل عال يراه المبحرون من مسافة أيام .. ويقع فى وادى سرنديب بسيلان وذروته أقرب ذرى جبال الأرض إلى السماء .. إذ يربو ارتفاعه على ألفى متر فوق سطح البحر » ويقول عنه الرحالة الشهير ابن بطوطة الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى أى الرابع عشر الميلادى .

« جبل سرنديب ، وهو من أعلى جبال الدنيا .. رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع .. ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا ..وفى الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق « بابا » والآخر بطريق « ماما » يعنون آدم وحواء عليهما السلام .. وأثر القدم الكريمة ، قدم أبينا آدم عليه السلام فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضًا وطولها أحد عشر شبرًا »[١] .

فنحن إذن أمام جبل شاهق فى وسط جزيرة تقع فى المحيط الذى يغطى بمائه النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، وهذا هو موقع الجنة الأرضية عند دانتى ، أما وظيفتها الآن فى التراث الإسلامى فنعثر على هذه الفقرة فى كتابات الصوفية التى تجعلها مطابقة تمامًا للمطهر ، إذ يقول الشعرانى :

« وإن كل أبناء آدم من الصالحين تصعد أرواحهم بعد الموت إلى هذه الجنة » أى أنها مقر تنتظر فيه الأرواح وتتطهر حتى يوم القيامة ، ومهما كانت الاختلافات المتصلة بحجم الجزيرة وموقعها بالتحديد بين دانتى وهذه العناصر من الثقافة الإسلامية فإنها لا تمنع من الاعتداد بهذه الأخيرة على أنها المصدر المعروف الموثق لمطهر دانتى[٢] .

---

(١) انظر رحلة ابن بطوطة ، طبع دار صادر بيروت عام ١٩٦٨ ص ٥٩٨/٦٩٩ .

(٢) انظر : أسين بالانيوس ، الكتاب المشار إليه . ص ١٩٣ وما بعدها .

لقاء العروس

يعد مشهد لقاء دانتى مع بياتريش من المشاهد الحساسة الدقيقة فى الكوميديا الإلهية ؛ إذ تتوقف عليه دلالة الملحمة وأهم أحداثها ، وليس له أى نظير فى التراث المسيحى ، بل يمثل خروجا على الأنماط التقليدية للفكر المسيحى فى عصره ، إذ أن أى لقاء حب يأتى فى إطار استشراف العوالم الغيبية مما ترفضه الكنيسة لمجافاته لروحها فى التهوين من شأن العلاقات العاطفية واتهامها بالمادية .

وكانت جرأة بالغة من دانتى أن يضع فى قمة رحلته لقاءه مع حبيبته التى ماتت قبله ، ولم يكن هذا حدثا عفويا بل بنيت على أساسه بقية أحداث الملحمة .

وبالرغم من محاولات الباحثين المتكررة للعثور على النواة الأولى لهذا الموقف فى أدب الفروسية وعند شعراء التروبادور فى العصور الوسطى ، خاصة من الإيطاليين أصحاب مذهب « الأسلوب الحلو الجديد » ونزعتهم إلى الإشادة بالحب الروحى الرومانسى الذى قد يصل إلى درجة تقديس المرأة مما تمتزج فيه النزعات الصوفية بالحسية ، إلا أن كل هذا قد يشرح التطور الداخلى لدى دانتى مما حفزه على تقبل هذا النموذج واحتضانه ، وتظل السابقة الأدبية والثقافية ماثلة فى أحاديث المعراج وأوصاف الدار الآخرة التى أبرزت صورة عروس السماء الإسلامية ولفتت إليها الشاعر الإيطالى .

على أن هذا الحب الفردوسى المثالى الذى غذى خيال دانتى مدين بدوره للتصور العربى الإسلامى للحب العذرى كما تبلور لدى الشعراء والمفكرين العرب فى المشرق والمغرب وانتقل عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية إلى أوربا .

ويبقى بعد ذلك شىء واضح ، وهو أن نموذج عروس السماء ذا الأهمية القصوى فى الكوميديا الإلهية ، المجافى للروح المسيحية والذى يخلو التراث الأوربى من نظائره يتطابق مع أوصاف الحور العين فى الآثار الإسلامية فى جملته وكثير من تفاصيله .

وتمهد الروايات الإسلامية لهذا اللقاء بوصف عام للإطار الطبيعى الذى يتم فيه بطريقة تشبه ما نجده عند دانتى ، فعندما يتجاوز العابد الصراط ويجعل جهنم خلف ظهره ويفضى إلى طريق الجنة ، يمضى مع ملائكة الرحمة تهديه وتحدثه بالتمجيد

والثناء على ربه وتبشره بقرب فوزه برضوانه ، فإذا شارف الجنة وصل إليه من نسيمها وبرد نعيمها وعطرها وطيب ثمرها وتغريد أطيارها وترنمها ما لم ير العالم مثله ، وهنا نستحضر بعض صور دانتى المثيلة فى المطهر إذ يقول :

« وسرت فى المرج وئيدا ..
على الأرض التى بعثت شذاها فى كل جانب
هواء عليل لا تتبدل طبيعته أخذ يلمس جبينى
وصغار الطيور لا تكف عن تغريدها وترنمها
والأرض المباركة مليئة بالثمار والفاكهة »[١]

ثم نقرأ فى بعض الروايات الإسلامية هذا الوصف للأنهار التى تنبع عند باب الجنة :

« عين من ماء عذب بارد فى مثل صفاء القوارير
أصفى من البلور وأبرد من الثلج وأشد بياضا من اللبن »

فتتراءى من خلفها صور دانتى التى يقول فيها :

« وإن كل ما فى هذا الجانب من المياه الصافية الرائقة
لتبدو عكرة بجانب تلك التى لا تخفى بين طياتها أى رواسب
وإن مذاقها ليفوق كل مذاق
فهى رحيق يجرى ذكره على لسان الجميع »[٢] .

* * *

أما لحظة اللقاء فنجتزئ منها أولا بعض المشاهد لنضعها بإزاء ما يوازيها عند دانتى ثم نرى صورة كلية شائقة فى بعض عناصر التراث الإسلامى المتقدمة تنبئ عن الطابع الفنى لهذا التصوير الإسلامى ، فقد ورد فى رواية ابن مخلوف عن شاكر بن مسلم[٣] هذه الأوصاف التى لا تنفرد بها وإنما هى كثيرة الدوران فى باب « وصف نساء وحور الجنة » .

---

(١) انظر : المطهر ترجمة د . حسن عثمان – النشيد ٢٨ أبيات متفرقة منه .
(٢) انظر : المطهر ترجمة د . حسن عثمان – النشيد ٢٨ أبيات متفرقة منه .
(٣) انظر مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ١٤٩ .

الرواية الإسلامية	دانتى فى المطهر
فنظرت فإذا حوراء يقصر جمال كل الحور دون جمالها ، ويقل كل كمال دون كمالها . عليها حلة من ألوان شتى .. يكاد يخطف الأبصار نور وجهها ويذهب الألباب بهجة بهائها بما كساها الله من الحسن والجمال والبهاء والكمال. ينظر إلى وجهه فى خدها أصفى من المرآة ويغلب ضوؤها ضوء الشمس والقمر ولولا مارزق الله وليه المؤمن من قوة الإبصار وثبات الجنان لذهب بصره ووهمه بنور ما يرى منها وبهاء ما يبدو عنها ، فلو أن طاقة من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها .	هكذا بدت لى سيدة تكللت بغصن الزيتون فوق نقابها الأبيض . وارتدت تحت العباءة الخضراء ثوبا قانيا أحمر . وقد بدت لى أنها قد فاقت جمالها القديم أكثر من تفوقها على سائر النساء هنا . فنظرت إلى النور البهيج فى مقلتيها . ورأيت كيف يتبين إشراق جمالها . أيها الجلال المتألق للنور الأبدى الساطع ظلت عيناى محدقين مثبتين عليها حتى غابت سائر حواسى عن الوعى ولقد حرمتنى من النظر برهة الحال التى يؤول إليها البصر حينما تصيب أشعة الشمس العينين .. ولكن بعد أن ألف بصرى ما هو أقل منها تألقا[١] .

أما الوصف التفصيلى الباذخ لعروس الجنة فنجده فى الرواية الأدبية التالية :

« وأنت وزوجك بأكمل الهيئة وأتم النعمة ، وقد حار فيها طرفك ، تنظر إليها متعجبا من جمالها وكمالها ، وطرب قلبك بملاحتها وحسنها .. وأنست روحك لها وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها فسطع نور بنانها فى الشراب وهى تمسك لك كاسات الدر وأكاويب قوارير الفضة ، فاجتمع نور الشراب ونور وجهها ونحرها وثغرها ، فيالك عروس ويا تلك عروس طفلة أنيسة عربوبة كامل خلقها ، ويا جمال وجهها ويا بياض نهودها وتثنى جسمها ، يكسوها التأنيث ويلينها النعيم ، تنظر إليك بغنج الحور وتكلمك بملاحة المنطق وتداعبك بالدلائل وتلاعبك بالعشق والطرب »[٢] .

على أن من لحظات اللقاء بين زائر الفردوس وعروسه العتاب المحبب الذى تلقاه به لما شغله عنها من الحب الدنيوى ، فبياتريش تقول لدانتى مثلا :

---

(١) راجع المطهر : الأناشيد ٣٠/٣١/٣٢ وكتاب أسين بالاثيوس السابق الذكر ص٢٠١/ ٢٠٢ .
(٢) انظر كتاب التوهم للحارث المحاسبى – طبع القاهرة – ص ٤٦ وما بعدها .

« ما كان ينبغى لعذراء صغيرة أو باطل آخر قصير المتعة
أن يخفض إلى الأرض رياشك .. » .

وعروس التراث الإسلامى تجهد فى تخليص حبيبها من براثن علاقاته المادية كذلك وتقول لمن تحاول إغراءه فى الدنيا :

« ويحك ، دعيه من شرك ، إنما هو معك ليال قلائل » .

وبياتريش ترى من سمائها أن دانتى فى خطر ، فتأتى لإنقاذ روحه وخلاصه وتعاتبه مر العتاب على خضوعه لمغريات الدنيا ووقوعه فى شرك جمال نساء غيرها ، وهذا ما نجد مثله عن عروس السماء فى التراث الإسلامى التى « تستبطىء قدومه وتشتاق إليه كما تشتاق المرأة إلى زوجها الغائب ، فإذا جاء تلقته عند أبواب الجنة وقالت له : « طال ما انتظرتك ، أنت حبى وأنا حبك ، ليس دونك تقصير ، ولا وراءك معدل »[1] .

على أن ضمان وصول عناصر هذا التراث إلى دانتى إنما هو ما ورد فى قصة المعراج المترجمة متناثرًا فى سبعة فصول[2] . من وصف الحورية العيناء البارعة الحنان والجمال والتى تظهر لهفة بالغة للقاء عريسها الذى تنتظره . ومن وصف مجموعات الحور بملابسهن الباذخة وطبيعتهن الفائقة وهن ينشدن « نحن الخالدات فلا نموت ، نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، طوبى لما كان لنا وكنا له » ثم صور هذه العرائس وقد ولدت فى خيام لم يصل إليها بشر « حور مقصورات فى الخيام » فتتفتح عنهن كما تتفتح الصدفة عن اللؤلؤة ، وتخصص كل واحدة لرجل يكتب اسمه على نحرها وتحرم رؤيتها على من سواه » .

فعندما يقرأ دانتى هذه المشاهد من التراث الإسلامى تستحث خياله وتثير جرأته ليتصور أن عينى بياتريش – حبيبته التى حرم منها فى الحياة الدنيا – هى مرقاته إلى عالم السماوات ، وليتمثل – كما فعل الصوفية المسلمون من قبله – أن هذا الحب ليس إلا درجة تصفو بنفسه وتسمو بروحه كى تشارف آفاقا أضوأ وأخلد من الحب الأبدى الإلهى ، وطالما تحولت المرأة فى التراث الإسلامى إلى رمز صوفى بالغ الشفافية والعمق ، هكذا أصبحت ليلى عند جامى وغيره من شعراء الفرس ، فلا غرو أن تقبس بياتريش من هذا المعين الذى لم يكن يجهله دانتى وأن تصبح أنور نموذج بعروس السماء كما تواترت بها الآثار الإسلامية ، وأن تتعانق عندها ثقافة الشرق والغرب على يد شاعر عبقرى .

---

(١) انظر : حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ٢٣٧ .
(٢) انظر وثيقة معراج محمد الملحقة بالكتاب ، الفصول ٣٥/ ٣٨/ ٤٤/ ٤٦/ ٤٧ .